الوسيلة إلى الله

للاستاذ الكبير عبد الوهاب خلاف

« **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله . وابتغوا اليه الوسيلة ، وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون** » (٣٥ المائدة)

أمر الله سبحانه المؤمنين بهذه الاوامر الثلاثة ، مخاطبا لهم بوصف الايمان ليشعرهم بأن من مقتضى الايمان ومن شأن المؤمنين أن يمتثلوا هذه الاوامر ، فان الايمان اذا كمل ورسخ سيطر على حواس المؤمن وجوارحه وأقواله وأفعاله فكان فيما يفعل وفيما يترك صادرا عن ايمانه موافقا ما يقتضيه ، فايمان المؤمن دعامة عمله ، وعمله مرآة ايمانه .

الامر الاول (**اتقوا الله**) اتقاء الله وقاية النفس من عذاب الله وسخطه في الدنيا والآخرة ، ومعنى اتقوا الله قوا أنفسكم واحفظوها من عذاب الله . وانما يقي المؤمن نفسه ويحفظها من عذاب الله اذا فعل ما أمره الله به واجتنب ما نهاه عنه . ومن عرفوا التقوى بأنها امتثال الاوامر واجتناب النواهي فقد عرفوها بسببها وما يستلزمها . والله سبحانه بهذا يلفت المؤمنين الى أن امتثالهم أوامره واجتنابهم نواهيه واجب حتم عليهم من وجهين : أولهما أن هذا مقتضى الايمان به ولا يتفق الايمان الكامل بالله والخروج عن حدوده . وثانيهما : أن في هذا وقاية أنفسكم من عذاب الله وسخطه .

الامر الثاني (**وابتغوا اليه الوسيلة**) الوسيلة والوصيلة لفظان معناهما واحد وهو ما يتوصل به المؤمن الى ربه . وليس المراد ابتغاء الوسيلة الى ذات الله ، وانما المراد ابتغاء الوسيلة الى ثواب الله ورحمته ورضاه ، وانما قال سبحانه : (**وابتغوا اليه الوسيلة**) ، ولم يقل وابتغوا الوسيلة اليه . ليلفت المؤمن بهذا التقديم الى أن عليه أن يبتغي الوسيلة

الى الله وحده ولا يبتغى الوسيلة الى سواه. كما قال تعالى : (وإياك نستعين) أى نستعين بك وحدك ولا نستعين بأحد سواك لأن العون الحقيقى لايكون الا من الله ، ومن لم يكن الله فى عونه فلا عون له . ومعنى وابتغوا اليه الوسيلة اطلبوا واقصدوا ما يوصلكم الى ثواب الله ورحمته ورضاه .

وأول وسيلة يتوسل بها المؤمن الى ثواب الله ورضاه هى ايمانه الصادق وعمله الصالح وطاعته لله بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه فمن امتثل أوامر الله واجتنب نواهيه ووقف عند حدوده فقد اتقى الله أى وقى نفسه من عذابه وسخطه . وابتغى الوسيلة الى الله أى فعل ما يصل به الى ثوابه ورضاه .

ومن ابتغاء الوسيلة الى رضا الله وثوابه أن يطلب المؤمن ممن يرجو قبول دعائه أن يدعو له أو أن يعمل عملا يحمل بعض أهل الخير على أن يدعو له. فطلب الدعاء أو فعل ما يحمل على الدعاء هو ابتغاء الوسيلة الى رضا الله ، وقد ورد فى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له : فقد عد دعوة الولد الصالح عملا لأبيه والله لا يضيع عمل عامل ، وورد فى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا لقيت الحاج فسلم عليه وصافحه وسله أن يستغفر لك فانه مغفور له » .

وورد فى الحديث الصحيح ان عمر بن الخطاب استأذن رسول الله فى أن يعتمر فأذن له الرسول وقال له « لا تنسنا ياأخى من دعائك » .

وورد فى الصحاح أنه لما أجدبت الارض فى عام المجاعة خرج عمر ومعه كثير من أصحاب رسول الله وأخذ معه العباس بن عبد المطلب وقال عمر فى دعائه : انا كنا اذا أجدبنا نتوسل اليك برسولك ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهانحن نتوسل اليك بعم نبينا . ويأخذ العباس فى الدعاء ويؤمنون على دعائه .

فرضا الله سبحانه وثوابه ورحمته جزاء منه جل شأنه ، والجزاء انما يكون على عمل يعمله المؤمن ليصل به الى هذا الجزاء . والعمل الذى يعمله المؤمن ليستحق به رضا الله هو طاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ،

ودعاؤه وسؤاله الرضا والرحمة . واستدعاؤه أى طلبه ممن يرجو قبول دعوته أن يدعو له أو فعله ما يستوجب الدعاء له .

وجمهور المسلمين فى دعائهم وابتهالهم يتوسلون برسول الله وبسائر الانبياء والمرسلين ، وبمن يعتقدون أن لهم كرامة عند ربهم من أوليائه الصالحين . يتوسلون بهم وبصفاتهم وبميزاتهم وكراماتهم . فالمؤمن يقول فى دعائه ربه : الهى ارحمنى وارض عنى برسلك وأنبيائك . أو بجاه رسلك وأنبيائك وأوليائك . وفريق من المسلمين يستنكر هذا النوع من التوسل ويقول : ان الوسيلة الى رضا الله العمل . وأما ذات الغير أوصفاته سواء أكان حيا أم ميتا فليس عملا يتوسل به المؤمن الى جزاء من الله .

ولاأرى موجبا لهذا الاستنكار لأن من يتوسل الى الله أو بولى من أولياء الله هو يتوسل الى الله بدعوة أو شفاعة ممن يتوسل بهم لابذاتهم . ولهذا قال عمر فى دعائه انا كنا اذا أجدبنا نتوسل اليك برسولك ونبينا محمد . وماكان توسلهم الا بدعائه ، ومن يتوسل الى الله بجاه رسول الله أو جاه ولى من أوليائه هو يتوسل الى الله بصفة من صفات الله أو فضل من أفضاله ، لأن جاه الرسول عند الله هو فضل الله عليه وتكريمه ، فالمؤمن يتوسل الى الله بصفات الله وأفضاله .

واعتقاد المؤمن أن رسول الله والاولياء من المؤمنين شهداء وأحياء عند ربهم ، هو الذى يبرر توسله بهم فى حياتهم وبعدموتهم ويبعثه على استدرار دعائهم وشفاعتهم .

على هذا التوجيه السليم المتفق وايمان المؤمن يجب أن يوجه التوسل برسل الله وبأوليائه ، فالمؤمن انما يريد بالتوسل بهم التوسل بدعوة منهم أو شفاعة أو لفتة وهم مقبولون عند الله فدعوتهم للمتوسل بهم أو شفاعتهم أو لفتة منهم تصل به الى رضا الله ما دام أهلا لرضاه .

ولا ينبغى تشديد النكير على هؤلاء المتوسلين ونسبتهم الى المروق لأن قلوبهم عامرة بالايمان بالله . ونواياهم حسنة ، والاعمال بالنيات ، وعلى هذا التوجيه يوجه قول من يقول يارسول الله أو ياولى الله فهو لا يناديه عابدا له أو مؤلها له ، وانما يناديه مستشفعا به أو سائلا دعوة منه . والنهى فى قول الله سبحانه : **(فلا تدعوا مع الله احدا)** . هو عن الدعاء الذى هو عبادة ، وياحبذا لو انتفعنا بايمان هؤلاء المؤمنين ووجهناهم

التوجيه الصحيح بدلا من توسيع الخلف بين المسلمين وتفريقهم شيعا .

وقد وردت الوسيلة فى بعض الاحاديث بمعنى خاص ليس هو المراد فى الآية . روى عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فانه من صلى على صلى الله عليه عشرا ، ثم اسألوا لى الوسيلة وهى درجة فى الجنة من سألها لى حلت له شفاعتى .

الامر الثالث (**وجاهدوا فى سبيله**) الجهاد والاجتهاد بذل الجهد **واحتمال المشقة** ، **وسبيل** الله هو الصراط المستقيم الذى يوصل الى خير الجماعات والافراد ، فى الاولى والآخرة ، والله سبحانه أمر المؤمنين أن يبذلوا الجهد ويحتملوا المشقات فى سبيل ما يوصل الى الخير والعزة ، فى الدين والدنيا من القتال فى سبيل الله ، ومقاومة من يتعدى حدود الله والتناصح والتآمر بالمعروف وكل ما يوصل الى الخير العام والمصلحة للأمة والافراد .

ومن أنعم النظر فى أوامر الله الثلاثة تجلى له أن الله سبحانه أمر المؤمنين بطاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ورغبهم فى هذا وحثهم عليه بأن وصفه أولا بأنه اتقاء لعذاب الله ووقاية من سخطه ، وبأن وصفه ثانيا بأنه ابتغاء الوسيلة الى رضاه وثوابه ، وبأن وصفه ثالثا بأنه جهاد فى سبيل المصلحة العامة للافراد والامة .

وأكد هذا الحث والترغيب بقوله (**لعلكم تفلحون**) أى لاجل أن تفلحوا وتفوزوا بالخير والسعادة فى الدارين فلفظ لعل من الله سبحانه ليس للترجى وانما هو لبيان مايرجى أن يحصل أى للتعليل ، والافلاح لايكون الا نتيجة لعمل العامل وكسبه يقال أفلح المجاهد فى سبيل الله وأفلح المتقون . وأما من وصل الى نتيجة بغير عمل منه ولا مباشرة سبب فلا يقال له أفلح فلا يقال أفلح الوارث فى ارثه ، فتقوى الله وابتغاء الوسيلة اليه والجهاد فى سبيله أعمال للمؤمن من سعيه وكسبه فاذا وفق فيها فقد **أفلح** أى فاز فوزا هو نتيجة عمله (**والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم**) .

عبد الوهاب خلاف